مدارس "اكوام" الطين

(لا غنى كالعقل، ولا فقر كالجهل)
الامام علي (ع)

د. خالد السلطاني
معمار واكاديمي

عندما حدث التغيير المجيد في ٩ نيسان ٢٠٠٣ بسقوط الديكتاتورية ونظامها القمعي، تطلع كثر الى تحقيق الامال المؤجلة، واول هذه الامال منح اطفال العراق حقهم في التعليم ببيئة ملائمة وصحية، بعد عقود من الحرمان والتغاضي ونشر الافكار المشوهة المليئة بالاكاذيب والاوهام. لكننا نعرف ان اعداء التغيير بكل الوانهم الايدولوجية واختلاف جنسياتهم عملوا (ومازالوا) بكل ما في وسعهم بشن حملات مرعبة في بطشها وارهابها وقسوتها من اجل وقف عملية التغيير واجهاضها. ونعرف ايضا بان مسرح تلك العمليات المشينة بقي محصوراً في مناطق محددة من العراق، دعيت لاحقا "بالمناطق الساخنة". وظل اقليم كردستان وكذلك مناطق واسعة من الجنوب بمنأى تقريبا عن نشاط الزمر الارهابية، ما فتح الابواب واسعة امام ما يفترض به من عمليات اعادة البناء والاعمار في تلك المناطق الأمنة نسبياً، التى حرمت منها منذ عقود كثيرة.

ساتناول بالحديث في مقالتي هذه، الشأن الجنوبي لاطلاعي الشخصي على كثير من جوانب بيئته، متحاشيا الحديث في شؤون اقليم كردستان. بيد ان عدم الكلام هذا، لا يعني بالضرورة خلو كردستان من أخطاء مرتكبة، كما لا ينبغي ان تفهم عدم الاشارة الى ذلك كونها نوعا من تغطية لسلطات الاقليم عن تلك الاخطاء.

ما يصدم ويثير الدهشة معاً هو المستوى المزري الذي وصلت اليه حالة النشاط البنائي تصميما وتنفيذا للمنشأة العامة في كثير من مناطق الجنوب؛سواء كانت ابنية تعليمة أم صحية ام ادارية ام خدمية، حالة لا يمكن باي حال من الاحوال، تبرير وجودها، كما لا يمكن ايجاد مسوغ لاستمرارها.

فالطبقة الحاكمة هناك تجاهر بانها من اشد اعداء النظام السابق، بل ومن ضحاياه. وتزعم بانها ناضلت طويلا ضده لتثبيت حقوق الناس العادلة والمهضومة ابان الحكم الشمولي وتسعى وقد تسلمت مقاليد الحكم بعد التغيير المبارك، الى إرجاع تلك الحقوق الى مستحقيها في تلك المجتمعات الطيبة،. لكن ما نراه واقعا هو استمرار سلب تلك الحقوق، وعدم الاكتراث مطلقا بالشأن العام وتمجيد المصلحة الخاصة والفئوية، معبرا عنه بفساد اداري ومالي يندر ان حصل في اي وقت من اوقات سالفة. وحالة المباني العامة الرديئة ولاسيما مباني المدارس الابتدائية الطينية التى "تعج" بها المنطقة دليل لوحده على مدى ايغال جميع المسؤولين هناك في اتون ذلك الفساد بعيدا جدا عن اداء واجبهم الوظيفي والوطني والمهني حتى... الشرعي، "فمن ضيع الامانة، كما يقول الامام علي في نهج البلاغة، فقد تبرأ من الديانة". لكن آفة الفساد تبدو ليست هي المشكلة الوحيدة، ثمة مشكلة اخرى مرافقة لها وهي آفة الجهل، الجهل باستحقاقات المنصب المشغول وعدم ادراك تام لمتطلباته. وبحضور هاتين الآفتين الشائعتين جدا، مع الاسف الشديد، في صفوف معظم "الحكام" الجدد في الجنوب العراقي، ترتب عليهما تبعات مدمرة وفاجعة طالت حقوق الناس وأحقيتهم في الحصول على خدمات مناسبة.

لقد نشر احد المواقع العراقية تقريرا عن الوضع الكارثي للحالة الراهنة لمباني المدارس في محافظة ذي قار.

وقد ارفق التقرير معه صوراً "لمبنى" مدرسة ابتدائية، قال عنها التقرير انها تمثل "نموذجاً" للكثير من مباني مدارس مماثلة واقعة في مناطق مختلفة. واستخدامنا لفظة "مبنى" هنا مجازي بالطبع، فليس من ثمة بناء، ولا هم يحزنون. هناك "اكوام" من الطين و"جدران" من صرائف بمادة القصب، تعود طريقة صنعها الى آلاف السنين!.

دعونا نعترف بان الصور المنشورة صادمة؛ صادمة لجهة تعبيرها الواقعي عن حالة تلك المدرسة ونوعية هيئتها وطريقة "تنظيم" احيازها، صادمة لناحية استمرار تلك الحالة المزرية من دون ان يتدخل احد في تغييرها، رغم مرور فترة زمنية، نراها كافية جدا لاحداث تغيير جذري في تلك الحالة.

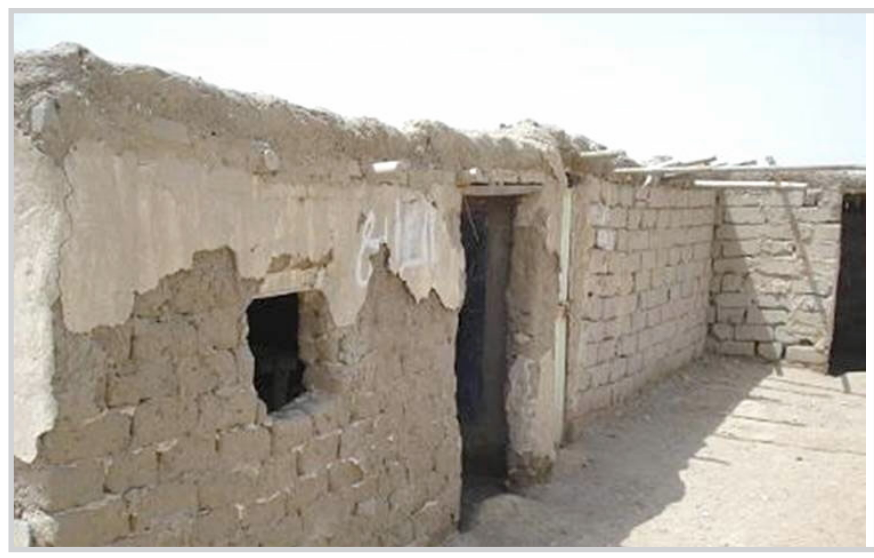

دعونا نعترف، ايضا، باننا ازاء مشكلة حقيقية غير ملفقة، تتطلب حلولاً سريعة، لا تقبل التأجيل او المماطلة. فالقضية تمس اطفال العراق، وهم مستقبل العراق.

يتعين التذكير، بان مشكلة تجديد واعمار وبناء المدارس ليست مشكلة هندسية/ معمارية لوحدها، كما يراها البعض. انها مشكلة يتطلب حلها توافر قرارات ذات مرجعيات عديدة، بضمنها طبعا توافر الكادر التصميمي المؤهل، ولكن المهم توفر الارادة السياسية والادارية بوجود تلك المشكلة والسعي الحثيث وراء تقصي حلول ملائمة باساليب مهنية وعلمية واقعيتين. ولكون اسباب المشكلة التى نتكلم عنها متنوعة ومعقدة ومتلازمة مع قضايا أخرى، فان حلها يقتضي وجود خبرات متنوعة باختصاصات مختلفة، ما يجعل من التعرف على حلول مشاكل مماثلة امرا مفيدا وضرورياً. من هنا، فان اشراك منظمة "اليونسكو"، وهي المنظمة المختصة بالتعليم ونشره، ولها باع طويل في هذا المجال، في المشاركة لايجاد حلول ناجعة سيكون امراً مجدياً ومرحباً به، كما ان التعرف على خبرة الدول المجاورة او المشابهة في هذا الشأن كسوريا او مصر او السعودية او تركيا او ايران والهند، سيكون ايضا امراً نافعاً وايجابياً.

لا يمكن، بالطبع، التوصل الى حلول صحيحة وسريعة واقتصادية باغفال دور المعماريين والمهندسين الاخرين، وعدم اشراكهم في هذا المسعى النبيل. ونرى ان الاموال المرصودة (او يفترض انها مرصودة)، بمقدورها لو نأت بعيدا عن تدخل المفسدين والمخادعين، ان تحرك "ساكناً" في "جسم" هذة القضية المهمة، التى اثارها الموقع المذكور، ولم تحظَ باهتمام كاف يتساوق مع أهميتها وخطورتها، عدا قرار رئيس الوزراء، والذي صدر اثر تفاقم ظهور هذه المشكلة في انحاء كثيرة من العراق، بتخصيص اموال عاجلة لبناء مدارس جديدة بدلا من المدارس "الطينية"، كما ورد في القرار.

يتعين المباشرة الفورية بتسمية لجان مختصة لمتابعة هذا الموضوع الحيوي، تكون مهمتها ايجاد حلول عاجلة قابلة للتنفيذ السريع، مع ضرورة وضع خطط آنية ومتوسطة وطويلة المدى لتحقيق هدف اساسي من اهداف الادارات المحلية، الذي ظل مغيبا طويلا، والنظر الى هذه القضية كونها قضية عامة، بعيدا عن التوظيفات السياسية حزبية كانت ام فئوية. انها قضية وطنية، تستمد اهميتها من طبيعة المهام المعرفية التى تؤديها. فالمعرفة حق مشاع للجميع ولاسيما لاطفال العراق المحرومين من هذا الحق بدون مسوغ قانوني او اخلاقي.

ان نداءنا هذا واثارتنا للموضوع، لا يعني تخلينا وتخلي جميع الوطنيين التواقين لتقدم بلدهم والمهتمين بنهضته في المطالبة الحقوقية والشرعية بمقاضاة جميع الذين اوصلوا الامور الى هذا المستوى الكارثي؛ وعلى المتنفذين في وزارة التربية تحمل مسؤوليتهم وتقديم كل المتورطين في هذه القضية للعدالة جراء ما اقترفوه من افعال على مدى السنين الماضية ضد العراق وضد اطفال العراق، وحرمانهم من امكانية الحصول على المعرفة بفضاءات تعليمية ملائمة. فقضايا التربية ومشاكل وزارة التربية لا تحل، قطعاً، باطلاق عيارات نارية في حرم المدارس العراقية، كما جرى اخيرا من قبل حماية الوزير، وانما تحل بمزيد من البحث والتصميم والمعرفة و... الحس الوطني.

انه لامر معيب ان تظل مدارس العراق الجديد الغني بثرواته وبمداخيله النفطية الهائلة، في مثل هذه الحالة المزرية.

انه لامر مخجل ان يستمر هذا الوضع الذي اقل ما يقال عنه انه.. غير انساني!.

الفن في العالم

لوحة لغويا الأسباني تسجل رقما قياسيا عالميا

المدى/ وكالات

Bajar Rinendo لوحة

جاك و دينيس جابمان (فنانان بريطانيان من جيل الشباب ومتخرجان من الأكاديمية الملكية للفنون)، يموننا بغرائب إباحية متنافرة، شهدها كاليري المكعب الابيض في شارع البيكادلي وسط لندن.

قد تكون هي الضربة القاضية للفن الذي نعرفه. ففي هذا العرض الذي إحتوته أهم قاعات لندن التجارية، يتمثل المؤشر اليقين لنهاية الفن التقليدي، سواء كان رسماً أو نحتاً. ويستمر هذا المعرض الى الثاني عشر من شهر تموز. هذا العرض يتكون من ثلاثة اجزاء متساوية في أهميتها وغرائبيتها.

في الجزء الأول والذي عنوانه ...يوماً ما لن تكون محبوباً...، ترحب بك قاعة فارهة تزدحم بصور زيتية لسيدات وسادة شديدي الإناقة، بأزيائهم التي تعود إلى القرنين الثامن- التاسع عشر.

قد تظن في البداية انها عودة دميمة للتصوير، لكن بنظرة متفحصة أكثر تكتشف إن هذه الصور الزيتية تمثل ذرية متوارثة قد شوهت بشكل متعمد بواسطة فرشاة رسم حاذقة، تركتهم ممسوخين بشكل فظيع: عيون منتفخة وناتئة، وجوه نازفة، واشكال تقترب من جماجم بشرية متحللة للتو. لكنهم يحتفظون بأناقة عجيبة.

قد لا نهتم بمن هم هؤلاء الأشخاص؟ ومن هو الرسام الأول الذي رسمهم؟ ولا يبدو أن الأخوين جابمان مهتمان بهذا أيضاً. الإهتمام كله ينصب على إستبدال الفنان الجريء، المروع، لهذه الصور التاريخية وكأنه إستعادة لمقولة ديشامب: ...لا يسمح للأموات ان يكونوا أكثر قوة من الاحياء....

هذان الفنانان يرفضان النفيس والجميل لكل عمل أُنتج قبلهما، إذ يجدان في هذا الرفض طريقهما الخاص والصادم. إنهما يعيدان صناعة الوهم ببشاعة الواقع التي تتجاوز حدود أو تخوم المعقول.

وتمثل هذه اللوحة ثورة للفلاحين على أحد الأعيان في سراغوسا في القرن الثامن عشر.

أما اللوحة الثالثة "Repentance"، فقد بيعت بـ٩٥٩,٦٥٠ جنيها إسترلينياً، وهي تمثل رجلاً مسناً يصلي مفجوعاً أمام صليب شاخصا بعينيه إلى السماء وفاتحا فمه على وسعه.

وكانت هذه الأعمال التي تنتمي إلى مجموعتين للفنان غويا قد بيعت قبل عام ١٨٧٧ في مزادات في باريس، وشملت ١٠٥ لوحات، إلا أن الخبراء فقدوا أثرها بعد ذلك.

أعلنت دار كريستيز للمزادات في لندن عن بيع ثلاث لوحات للفنان الاسباني فرنشيسكو غويا يوم الثلاثاء بحوالي ٤,٥ مليون جنيه إسترليني. وكان الخبراء يعتقدون أن هذه اللوحات فقدت منذ أكثر من ١٣٠ عاما. وحسب دار كريستيز، فقد بيعت لوحة "Bajar Rinendo" وهي من ألبوم "ساحرات ونساء" بـ٢,٣ مليون جنيه إسترليني مسجلة رقما قياسيا عالميا جديداً لأعمال غويا في المزادات. وبيعت لوحة اخرى من مجموعة "صور من أسبانيا" بـ٧٦٩,٢٥٠ ألف جنيه إسترليني.

في معرض مشترك .. هتلر الشاب رساماً

الجزء الرئيسي من المعرض ينتصب في القاعة السفلية، وهو عبارة عن هلوسات متخيلة لجحيم الحروب وخصوصاً الحرب العالمية الثانية. تسعة أقفاص زجاجية متساوية الحجم مرتبة على شكل صليب معقوف. كل منها يمثل رؤية للهلاك والدمار والقنوط يحملها الجنود النازيون ممثلين بمجسمات بلاستيكية مصغرة في مشاهد بائسة وتعيسة للغاية.

مشاهد مصغرة لكنها مثقلة بكثافة الحدث المفزع، تعيد تذكيرنا بفلم ...أعداء على الأبواب... الذي يصور احتلال مدينة ستالينغراد في الحرب العالمية الثانية وخسارة أربعة ملايين نفس بشرية في هذه المعركة. إنه سفر وإبحار لجرائم النازية والديكتاتوريات العالمية التي اشتركت في سعار منظم للعنف دمر وأباد كل شيء حتى المؤن.

الالتباس في هذه المشاهد كونها مذهلة ومشعة في قنوطها ويأسها. هي نسخة مسهبة ورهيبة اكثر للجحيم. ورغم ان الفنانين لم يشهد حروباً ولا ديكتاتوريات فأن تصويرهما هذه المآسي البشرية هو قمة في الإبداع الى درجة انك ستستحضر كل هذه الكوارث من جديد.

تحتضن هذه الاقفاص التسعة آلاف من أجزاء الاجساد المتمزقة والمتفسخة، يتشارك الاحياء منهم والهياكل العظمية في حمل تعاسة ومهزلة الحروب البشرية.

لكن روح الدعابة ليست غائبة عن جحيم هذه الأقفاص، هناك مثلا لحظة تعميد هتلر الطفل في كنيسة محترقة او هتلر البالغ وهو يستريح بجانب قبر عملاق.

إن الدعابة والرعب يمنحان التاثير الرمادي المميت نفسه لهذه الأقفاص الزجاجية الرهيبة. هناك مثلا مجسم لطفل ذي ثلاثة رؤوس يلعب الكرة على ضفة ساحل بحيرة من دماء حمراء أو جندي يمص الحليب من أثداء خنزيرة في مصفحة عسكرية.

الإيغال في الواقع والاحتجاج عليه يلتقيان في أعمال جاك ودينس الصادمة، وهما يوظفان هذه الصدمة حافزا للإنارة، للإثارة، للتطهير والحذر.

ولو كان المستقبليون صادقين بإدعاءاتهم أن الفن هو العنف، القسوة واللاعدالة، فأن الأخوين جابمان أظهرا قدوة وقدرة مذهلة ومدهشة لهذا الإدعاء.

الجزء الثالث من المعرض هو عبارة عن رسوم هتلر الشاب المائية والتي اشتراها الفنانون بمبلغ ١١٥,٠٠٠ باون استرليني رغم كل الانتقادات حول القيمة المعنوية لدفع مبلغ كبير لاعمال أُنتجت من قبل أقسى دكتاتور في العالم.

جاك ودينس عرضا ثلاثة عشر عملاً من هذه الرسوم المائية الهتلرية لكن بعد ان أضافا بصماتهما الشخصية لهذه الاعمال.أقواس قزح غافية، نجوم براقة، وجوه ضاحكة، وفيضان منثال من القلوب العاشقة أُضيفت الى خلفيات أعمال هتلر وعُرضت مجدداً في سوق الفن بمبلغ ٦٥٨,٠٠٠ باون إسترليني.

الاخوان جابمان نفيا أن تكون هذه الرسوم والتي ستباع كقطع منفردة، هدفها إستعادة أوإسترجاع هتلر، وقد سبق لهما ان وصفا أعمال هتلر الأصلية بـ ...العمياء... والناقصة للإبداع.فهما يريان أن فكرة إسترجاع هتلر هي سيئة جداً لكن فكرة إسترجاع أعمال هتلر الفنية هي فكرة عبقرية، كما يقول جاك جابمان.ويصف هذه اللوحات: انها لا تمت بأدنى صلة لهتلر الآن بل هي إبداع افكارنا. إن التهشيم والإفساد من الممكن ان يكون فعلاً إبداعياً ايضا.

وقد تعهدت إدارة كاليري ...المكعب الأبيض... بالحرص عند بيع هذه الأعمال. وهي تفضل أن يكون المشترون أشخاصاً لا يروجون للنازية الجديدة بأي شكل من الأشكال.

دينيس جابمان قال: إن هذا العرض والمعنون ...لو كان هتلر هيبي كم كنا سنكون سعداء...، هو في الحقيقة إجترار لسؤال: ماذا كان سيحدث لو لم يرفض هتلر من قبل مدرسة فينيسيا للفنون. ويضيفا لقد أظهروا خواء وعدم اكتراث لأعماله مما جعله ممتلئاً بالمرارة والكره.

حاول هتلر ان يدرس الفن في هذه المدرسة من خلال عرض أعماله على لجنة القبول لكن هذه الرسومات كانت عمياء تماما ولا تشي بأن الذي رسمها سوف يكون أكبر مرتكب جرائم بحق البشرية.

هذه الأعمال تمثل قشرة الرجل فقط. وهي تشبه الآف الاعمال الرخيصة التي تمتلئ بها الأسواق. وكل الذي يمكننا أن نقوله أنها أعمال فنية فظة وفظيعة وليس بها أدنى مراتب الابداع.

عنوان المعرض **if Hitler had been a Hippy how happy would we be))**، لا يحمل علامة استفهام، لكنه يسقط الأسئلة المنغصة في رؤوسنا: هل الروح البشرية تواقة الى الهلع؟ هل من الممكن أن نتأمل العالم بدونه؟ وحتى لو يضيع الخوف، هل من الممكن كما يقول الاخوان جابمان ان نعيد تشكيله وابداعه!؟

هذا المعرض يبلبل مزيداً من الاحتمالات المحرجة.

هي ليست المرة الأولى التي يشوه بها الاخوان جابمان الأعمال الفنية، فقد سبق لهما أن أضافا لمساتهما الخاصة، من وجوه مضحكة ورؤوس مهرجين، لأعمال غويا المعنونة ...كوارث الحروب. ما أثار النقاد الاسبان ضدهما.